

## الفصل الرابع

ولا خير فينا إذا لم نسمعها







لم يكن أمير المؤمنين يحمل مسئوليته حُمَلاًن رجل مفتون  
بنبوغه، صَلَفٍ بمكانه، مُسْتَعْلَى بسُلْطانه.

بل كان يحملها بضمير الأمين على العهد، الباحث عن الحق،  
المستنهض وجود الآخرين وتفكيرهم ليأخذوا مكانهم معه،  
ويُنْضِجُوا بآرائهم رأيه، ويُعَاوَنُوا بِرُشْدِهِمْ رُشْدَهُ.

ولقد اقتضاه هذا، أن يُقَدِّس الشورى، ويحنى رأسه العالى فى  
خشوع وتهلل لكل معارضة شجاعة صادقة.

فإذا بهرنا جلال المسئولية عند «عمر»، وُسْمُوقِهَا الصاعد فى  
السماء، فلنضع أعيننا على القاعدة التى استقرَّ فوقها هذا البناء  
العملاق. ألا وهى الشورى والمعارضة.

وإنه لأمر عجيب حقاً أن يرفع لواء الرأى والمعارضة إلى المدى  
البعيد الذى سنراه، رجل يؤمن بالنصوص إيماناً مطلقاً... رجل

يخاف أن يفسر الآية من القرآن، خشية أن يُحملها من رأيه مالا  
تحتمل!

رجل لا يبيح لنفسه أن ينحرف قيد أنملة عن المنهج الموضوع،  
والخطة المرسومة، وبعبارة واحدة: رجل طاعة، وإيمان،  
ومتابعة!!!

ولكن العجب، أن نرى في هذه الظاهرة أيَّ عجب..  
فالذين يعرفون «محمدًا»، ودين محمد معرفة سوية عاقلة،  
يعرفون أن احترام النص، لا يعنى إهدار الرأى. وأن الطاعة  
المؤمنة، لا تنفصل عن المعارضة الأمينة.  
ثم إن «عمر» لم يكن بطبيعته رجل مُسايرة. صحيح أنه رجل  
إيمان وطاعة كما ذكرنا..

ولكنها الطاعة والإيمان والمتابعة التى يفرضها الاقتناع الوثيق.  
وهو قد اقتنع بالرسول وآمن به.. ومن ثم فهو يقفو أثره فى غير  
تردد أو التفات..

وإنه ليناقدش الأمور التى تحتاج إلى مناقشة... ويُسلم تسليمًا  
لقضايا لا يفهم - أحيانًا - حكمتها، ولكنه مقتنع سلفًا بالرسول  
الأمين الذى جاء بها..

يُقْبَلُ الحجر الأسود فى الكعبة، ثم يقول كأنه يخاطبه:  
- «إنك حجر لا تضر ولا تنفع، ووالله لولا أنى رأيت رسول الله  
يقبلك ما قبلتك»!!

ويُهرول كاشفاً عن منكبيه، ويقول:

- «فيم هذا الرَّمْلان، - الهرولة - والكشف عن المناكب، وقد أظهر الله الإسلام ونفى الكفر؟ ومع هذا لا ندع شيئاً كنا نفعله في عهد رسول الله ﷺ.

بل إنه ليعمد إلى ميزاب في دار العباس فيقتلعه من مكانه إذ كان ماء المطر يسيل منه إلى فناء المسجد. ولكن لا يكاد العباس يخبره أن الرسول هو الذي وضع هذا الميزاب مكانه، حتى يسارع «عمر»، فيجىء بالميزاب، ويقسم على العباس ليَقْفن فوق منكبيه - منكبي عمر - ويعيد الميزاب إلى حيث وضعته يد الرسول من قبل!!

وإنه يُسأل عن تفسير الآية الكريمة: ﴿وَالذَّرِيَّتِ ذَرَوْا ۝۱﴾ فَأَلْحِمِلْتِ وَقَرَأَ ۝۲﴾ [سورة الذاريات: الآيتان ١ - ٢]. فيقول: الذاريات ذرّوا، هي الريح... ولولا أنى سمعت رسول الله يقول ما قلته، والحاملات وقرأ، هي السحب.. ولولا أنى سمعت رسول الله يقول ما قلته ﷺ!!

إلى هذا الحد كان «عمر» وقافاً عند النصوص والتعاليم، ملتزماً التأسي والقُدوة.

ومع هذا، فقد آمن بالشورى إيماناً مماثلاً لإيمانه بالنص والقُدوة - والشورى رأى ومعارضة..

ولست أعرف شيئاً يرفع من قدر الشورى فى كل عصور التاريخ  
كما يرفع من قدرها إيمان «عمر» بها. وأسلوبه فى تطبيقها..  
إن تطور الحياة السياسية فى المدينة لم يكن يومئذ قد أُذِن  
للمؤسسات الديمقراطية أن تظهر، من «برلمان» وغيره..  
ومع هذا فقد ظفرت الديمقراطية من ذلك الرجل، وفى تلك  
البيئة وذلك العهد. بخير فرص التآلق والازدهار..  
لم يحاول عمر قط أن يفرض رأيه، أو أن يُملئ مشيئته، ولم  
ينفرد ساعة من نهار بحكم الناس دون أن يشركهم معه فى مسئولية  
هذا الحكم مشاركة فعّالة صادقة.  
والرائع الباهر فيه، أنه لم يكن يفعل ذلك تواضعاً أو تفضلاً...  
بل سجية، وفطرة، وواجباً..  
إذا كانت القضية التى يريد عمر أن يفصل فيها، لها فى كتاب  
الله بيان أنجز «عمر» كلمة الله.  
وإذا كانت من المشاكل الطارئة والقضايا الجديدة التى ليس  
لها فى الكتاب تفصيل، لم يعتسف «عمر» ولم يتكلف، ولم يضع  
الآية الكريمة: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام:  
الآية ٣٨]. فى غير موضعها.  
بل يعمد من فوره إلى الرأى والشورى وتقليب وجوه النظر..  
والرأى عنده، ليس التماساً للموافقة، بل التماساً للحقيقة  
ولطالما كان يقول للناس:

– «لا تقولوا الرأى الذى تظنونه يوافق هواى. وقولوا الرأى الذى تحسبوناه يوافق الحق»..

ولنطالع هذا المشهد من مشاهد سُوراه:

– حين حرر المسلمون بلاد العراق من حكم الفرس، ودخل أكثر أهلها فى دين الله، رأى «عمر» ألا يقسم أرضها الزراعية بين المجاهدين، وأن تظل كما هى بأيدى أصحابها، ثم ترد الضرائب المأخوذة عليها إلى بيت المال، فتقسم بين الناس جميعاً كل منهم ونصيبه المفروض.

وكان يرى أن تقسيم الأرض بين المجاهدين، سيقعد بهم عن الجهاد أولاً، وينقص غلّة الأرض لضعف خبرة المجاهدين بالزراعة ثانياً، ويخلق فى الإسلام طبقة من الإقطاعيين والمحكرين ثالثاً، كما أنه سيدع الآخرين الذين لم يملكوا، ضائعين، ويحرم الأجيال الوافدة من حقها ورزقها.

وعارض رأيه هذا نفر من الصحابة.

وكانوا كلما علا صوتهم، واحتدّت معارضتهم، قال «عمر» فى

هدوء:

«إنما أقول رأى الذى رأيتاه»..

وانفض الجمع من غير اتفاق على كلمة..  
 وفي اجتماع آخر، وكان «عمر» قد دعا فريقاً من الأنصار المشهود  
 لهم بالحُكْنة ونضج التجربة. فُتِح باب المناقشة، وخشى «عمر» أن  
 يجامله أحد في رأيه بوصفه أمير المؤمنين. فبدأ الحديث قائلاً:  
 «إني دعوتكم لتُشاركوني أمانة ما حملتُ من أموركم، فإني واحد  
 كأحدكم، وأنتم اليوم تقرون بالحق. خالفني من خالفني، ووافقني  
 مَنْ وافقني. ولستُ أريد أن تتبعوا هواي، فمعكم من الله كتاب ينطق  
 بالحق. فوالله لئن كنتُ نطقت بأمر أريده، فما أريد به إلا الحق»...

\*\*\*

والشورى، والمعارضة عند أمير المؤمنين، هما جناحا الحكم  
 الصالح القويم، وهما رتْنا كل حكم سديد.  
 من أجل هذا، لا يكاد يلي الأمر، ويتسمّع همس الناس حول  
 شدته وصرامته حتى يخلو بنفسه مفكراً، ويدخل عليه «حذيفة»  
 فيجده مهموم النفس باكى العين. فيسأله: ماذا يا أمير المؤمنين؟؟  
 فيجيب عمر: إني أخاف أن أخطئ فلا يرُدني أحد منكم تعظيماً  
 لى..

يقول حذيفة، فقلت له:

«والله لو رأيناك خرجت عن الحق. لرددناك إليه».

فيفرح «عمر»، ويستبشر ويقول:

«الحمد لله الذى جعل لى أصحاباً يُقوموننى إذا اعوججت»..

إن أعظم مظاهر التكريم للمعارضة، نراها فى مواقف هذا العاهل  
الغد منها.. فى ولائه الوثيق لها، وتوفير كل فرص الطمأنينة  
والأمن بل الإكبار لذويها..

يصعد المنبر يوماً فيقول:

«يا معشر المسلمين، ماذا تقولون لو ملئت برأسى إلى الدنيا

هكذا»؟؟

فيشق الصفوف رجل ويقول وهو يلوح بذراعه كأنها حُسام

ممشوق: «إذن نقول بالسيف هكذا»..

فيسأله عمر: إيأى تعنى بقولك؟؟

فيجيب الرجل: نعم إياك أعنى بقولى!

فتضىء الفرحة وجه «عمر» ويقول:

«رحمك الله... والحمد لله الذى جعل فيكم من يقوم عوجى»!!

لم يكن هذا الموقف من أمير المؤمنين موقفاً استعراضياً، فعمر

أكثر قوة وأمانة، من أن يلجأ لمثل هذه المواقف، إنما كان سلوكاً

صادقاً، ونهجاً تلقائياً مخلصاً، ينشد «عمر» من ورائه الوصول

إلى الحق والطمأنينة إلى أنه يحكم أمة من الأسود، لا قطيعاً من

النعاج!!».

إن «عمر» حريص على أن يمكن الناس - جميع الناس - من

حقهم فى ممارسة الأمر معه وأخذ مكانهم إلى جانبه.

ولو أنه بطش بالمعارضة، ولو مرة، إذن لباءت الشورى في عهده بِخِذْلان كبير، لكنه فعل نقيض هذا تمامًا.. أَقْصَى عنه أهل المُجاملِة والمُداهنة، ورفع مكاناً عالياً أولئك الذين يُناقشون، ويعارضون. ويقولون: إلى أين؟.. ولماذا؟..

وكان فرحه بكلمة جريئة مُحِقَّة يُجابُه بها، أو يُجابُه بها أحد من وُلاته تفوق كل فرح آخر على وجه الأرض..

ذات يوم يصعد المنبر، ليحدث المسلمين في أمر جليل، فيبدأ خطبته بعد حمد الله. بقوله «اسمعوا يرحمكم الله».

ولكن أحد المسلمين ينهض قائماً؛ فيقول:

والله لا نسمع... والله لا نسمع!!..!

فيسأله «عمر» في لهفة. ولم يا سلمان؟!

فيجيب «سلمان». مَيَّزَت نفسك علينا في الدنيا. أعطيت كلاً منا

بردة واحدة، وأخذت أنت بُردتين!!

فيُجيب الخليفة بصره في صفوف الناس ثم يقول:

— أين عبد الله بن عمر؟.

فينهض ابنه عبد الله: ها أنذا يا أمير المؤمنين..

فيسأله عمر على الملأ: مَنْ صاحب البردة الثانية؟

فيجيب عبد الله: أنا يا أمير المؤمنين..

ويخاطب «عمر» سلمان والناس معه يقول:  
 - إننى كما تعلمون رجلٌ طُوال، ولقد جاءت بردتى قصيرة،  
 فأعطانى عبد الله بردته، فأطلت بها بردتى..  
 فيقول سلمان وفى عينيه دموع الغبطة والثقة:  
 - الحمد لله.. والآن قل نسمع ونُطع يا أمير المؤمنين!!  
 أيبلغ الناس من حرية المعارضة أن يُحددوا للحاكم عدد أثوابه  
 وملابسه، وبهذه اللهجة الصارمة؟!  
 ألا من كان يعرف لهذا نظيراً فى التاريخ كله، فليأتنا به!!

\*\*\*

فى يوم آخر، وهو جالس مع إخوانه، يخترم الصفوف رجل  
 ثائر، ملء قبضته شعر مخلوق، ولا يكاد يبلغ «عمر» حتى يقذف  
 بالشعر فى صدره فى مرارة واحتجاج..  
 ويموج الناس بالغضب، ويهمّ به بعضهم، فيومئ إليهم «عمر»  
 ثم يجمع الشعر بيده. ويشير للرجل، فيجلس، وينتظر عليه «عمر»  
 حتى يهدأ روعه، ثم يقول له:  
 - والآن، ما أمرُك؟؟  
 فيجيب الرجل وقد عادت إليه ثورته:  
 - أما والله، لولا النارُ يا عمر!!

فيقول عمر: صدقتَ والله.. لولا النار!! .. ما أمرك يا أخا العرب؟  
ويقص الرجل شكّاته، وفحواها أن «أبا موسى الأشعري» أنزل  
به عقوبة لا يستحقها.. فجلده وحلق شعر رأسه بالموسى، فجمع  
الرجل شعر رأسه وجاء به إلى «عمر»..

فينظر عمر إلى وجوه أصحابه ويقول:

– لأن يكون الناس كلهم في قوة هذا، أحبّ إلى من جميع ما

أفاء الله علينا!!

ثم يكتب لأبي موسى يأمره أن يُمكن الرجل من القصاص منه  
جَلْدًا بجَلْدٍ وَحَلْقًا بِحَلْقٍ!!

هذا حاكم يهتز فرحًا لكل احتجاج قوى، أو معارضة شجاعة –  
وإن رجلا واحداً يطالب بحقه في غير حذر، ويقول كلمته في غير  
جبن لأحب إليه كما قال، من كل ما فتح له من الأرض، ومن كل ما  
ورث عن كسرى وقيصر!!

كان «عمر» واثقاً بنفسه، وباستقامة نهجه، ومن ثم لم يكن  
يُحاذر النقد أو يخاف المعارضة، بل كان يبحث عنهما، ويثيب  
عليهما، ويثيرهما في قلوب أمته وعقول شعبه، ويتخذ منهما  
مَشْعَلًا يستضيء به وَحُجَّةً يستكمل بها صواب أمره..

يخطب الناس يوماً فيقول:

– «لا تزيدوا مهور النساء على أربعين أوقية، فمن زاد ألقيت

الزيادة في بيت المال»..

فنتهض من صفوف النساء سيدة تقول: ما ذاك لك..  
فيسألها: ولم؟..

فتجيبه: لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَتَيْتُم مِّنْهُنَّ قِنطَارًا  
فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ﴿٢٠﴾  
[سورة النساء: الآية ٢٠].

فيتهلل وجه «عمر»، وبيتسم ويقول عبارته المأثورة: «أصابت  
امرأة، وأخطأ عمر»..

وحتى حين كانت تأتيه المعارضة غضبى لافحة، لم يكن يضجر  
منها أو يضييق بها.

بعد أن عزل «خالد بن الوليد» جمع الناس فى المدينة وقال  
لهم:

- «إنسى أعتذر إليكم من عزل خالد، فإنى أمرته أن يحبس هذا  
المال على ضعفه المهاجرين، فأعطى ذوى البأس، وذوى الشرف،  
وذوى اللسان»...

فنهض أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وقال:

- «والله ما أعذرت يا عمر، ولقد نزعنت فتى ولاة رسول الله،  
وأعمدنت سيفاً سلّه رسول الله، ووضعت أمراً رفعه رسول الله.  
وقطعت رَحِمًا، وحسدت بنى العم»!!

قطيعة رحم.. وحسد.. يُتهم بهما أمير المؤمنين هكذا فى غضب  
وعلى الملأ؟!!

أجل، وما زاد «عمر» على أن ابتسم ابتساماً صافية، وقال مخاطباً أبا عمرو: «إنك قريبٌ قرابةً، حديث السن، تغضب في ابن عمك!»!

\*\*\*

هذا ليس حاكماً عادلاً وحسب.. بل هو معلم كبير، وصاحب مهارة بالغة في صقل الجوهر الإنساني وبعث قواه.

فأى أثر باهر يتركه موقف كهذا في أفئدة الناس؟؟

وأية طمأنينة غامرة يملأ بها القلوب حاكم هذا سلوكه؟!!

ولكن، لم لا يفعل «عمر» هذا، وأكثر منه، وهو تلميذ رسول

الله: وصاحب أبي بكر خليفته؟!!

ولقد رأى بعينيه وسمع بأذنيه أعرابياً من أهل البادية يتهجم

على رسول الله ﷺ ويقول له وهو بين أصحابه:

- «أعطني، فليس المال مالك ولا مال أبيك».

ويرى الرسول يبتسم، ويقول للرجل:

- «صدقت» إنه مال الله!!!

ويستفز المشهد رجلاً، هو «عمر» نفسه، فيهمم بالأعرابي

ليبطش به، فيرده رسول الله في رفق. وابتسامته تعلق شفثيه

كتهلل الربيع، ويقول له:

- «دعه يا عمر. إن لصاحب الحق مقالاً»!!!

أجل، على هذا النهج المستقيم يمضى «عمر» مُقدِّراً كل نقد نافع، موقِّراً كل معارضة أمينة..

وإن لجميع الناس الحق فى أن يثيروا على أمير المؤمنين، وفى أن يعارضوا ما لا يقنعهم من تصرفاته.

ولقد تركهم يفهمون تماماً أن الشورى ليست ترفاً، ولا ملء فراغ.. إنما هى نهوض الشعب بمسئوليّاته مع الحاكم يداً بيد، ورأياً برأى، ومشئئة بمشيئة..

وكان إيمان الناس بأن أميرهم جاد فى معرفة آرائهم، وتمحيص رأيه..

وكانت التجارب الكثيرة التى أثبتت حفاوته بالمعارضة، واحترامه للشورى..

كان هذا وذاك على رأس الحوافز التى ألهمت الناس - جميع الناس - الشجاعة فى إبداء الرأى، والمشاركة فى حمل تبعه المصير.

لقد كان عمر خبيراً بأولئك الذين يرصدون الريح، ويستنبطون هوى الحاكم، فيسبقونه بالرأى الذى يساير هواه!!  
كان خبيراً بهؤلاء، فلا يقيم لهم وزناً..

وكان يقول لأحدهم إذا تقدم لتمثيل دوره: «يا عدو الله، والله ما أردت الله بهذا!!».

وكان هؤلاء قلة باهتة.

أما الأكثرون، فقد كانوا من الطراز الرفيع الباهر الذى يقول  
كلمته واضحة، صادحة، صادقة، نافعة، يملئها عليهم إيمانهم  
بواجبهم وبحقهم معاً.. ويشجعهم عليها سلوك أمير المؤمنين  
تلقاء نُصحائه ومعارضيه..

\*\*\*

وعظيم من عمر، أنه كان يلتمس المشورة والرأى، كُفردِ عادى  
لا كحاكم وأمير للمؤمنين..

فهو إذ يطلب الرأى فى أمر، لا يبدى عن أى مظهر من مظاهر  
السلطة.. بل يُشعر الآخرين بأنهم يُسدون إليه خيراً جزيلاً،  
وينقذونه من وطأة الحساب إذ يساعدونه بآرائهم على تبين الصواب  
والحق؟!!

وبهذه الروح نفسها يتلقى - كما رأينا - كل معارضة له، بل  
وتنديد به..

كان يجتاز الطريق يوماً، ومعه «الجارود العبدى» فإذا امرأة  
تناديه وتقول:

- رُويدك يا عمر، حتى أكلمك كلمات قليلة..

ويلتفت «عمر» وراءه. ثم يقف حتى تبلغه السيدة. فتقول له  
وهو مُصغ مبتسم:

- يا «عمر»: عهدى بك، وأنت تسمى «عُميراً» تصارع الفتیان  
فى سوق عكاظ، فلم تذهب الأيام حتى سميت «عمر»... ثم لم تذهب

الأيام حتى سميت «أمير المؤمنين».. فاتفق الله في الرعية، واعلم أن  
من خاف الموت، حُشى الفؤت!!

فقال لها «الجارود العبدى»: اجترأتِ على أمير المؤمنين.  
فجذبته «عمر» من يده وهو يقول: دعها فإنك لا تعرفها، هذه  
«خولة بنت حكيم» التى سمع الله قولها من فوق سبع سماواته وهى  
تجادل الرسول فى زوجها وتشتكى إلى الله، فعمر والله حَرِيٌّ أَنْ  
يسمع كلامها!!.

\*\*\*

إن فطرة العربى، وروح الإسلام، أمداً المسلمين الأوائل لا شك  
بهذا الحظ العارم من الشجاعة فى مواجهة الحاكم.  
ولكن لا ريب فى أن هذه الشجاعة الخارقة ما كانت ستبلغ مداها  
الشامخ هذا، لو لم يكن سلوك الحاكم تجاهها سلوكاً نبيلاً جليلاً  
يساعد على إربائها لا إطفائها - الأمر الذى كان يصنعه «عمر»..  
لقد نجت الشورى فى عهد هذا الرجل الكبير من كل ضائقة  
وأزمة.

ذلك أن أزمة الشورى توجد عندما يوجد الحاكم الذى يحب  
السُّلطة، أكثر مما يحب الحرية..

و«عمر» لم يفعل نقيض ذلك فحسب، بل إنه نظر إلى السلطان  
كما ينظر المضطر إلى لحم الميتة!!

وعلى الرغم من أنه جرّد السلطة حين مارسها من كل زَهوها،  
ومن كل إغرائها، ومن كل ضراوتها، فقد ظل ينظر إليها نظرتة  
تلك، وظلت علاقته بها علاقة من حُمل عليها، لا من سعى إليها..  
ولقد كان دائماً يعدُّ الشعب ويهيئه ليكون هو الحاكم الحقيقي،  
وليكون الخليفة الحق له يوم يذهب عن هذه الدنيا.

كان كل همه أن يتركه شعباً قوياً صلباً، ولقد فعل...  
وضع في خدمته كل دخل الدولة. وأقام من أجله الثغور،  
والحصون، وشاد له المدن والأحصار..

ثم مع هذا، بل قبل هذا، وضع كلتا عينيه على القوة النفسية  
للشعب. تلك التي تتمثل في شعوره الحقيقي بأنه سيّد.. وبأنه آمن  
كل الأمن.. وبأنه يصنع مصيره، ولا يُفاجأ به!!

وهكذا أخضع «عمر» للشورى كل خُطة وكل قرار.. وأعطى الحق  
كل توقير وكل إكبار.. ولم يجعل الشورى وقفاً على بطانة أو فريق  
من الناس. بل احترمها كحق مبرور للأمة كلها!!

ذلك أن أمير المؤمنين لم يكن رجلَ بطانة.. بل كان رجلَ أمة،  
ورجلَ عالم، ورجلَ تاريخ!!

\*\*\*

نحن أمام إنسان فيه كل أصالة نشأته، وبيئته، ودينه..  
رجل يعرف مكانه من الناس، ويعرف مكان الناس منه،  
ويعرف مكانه والناس معاً من تيار الحياة الإنسانية الهادر.

ثم هو بصير بحقائق عالمه من غير أن يدرس هذه الحقائق فى  
جامعة أو فى كتاب..

وأولى هذه الحقائق كما يعلم، وكما عبر هو فى أعذب وأمتع  
وأجمع قول: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟  
هذه أولى حقائق عالمتنا الإنسانى، كما يدرك «عمر»: «الحرية  
حق تعلنه لحظة الميلاد».

وهو كحاكم، لا يخافها، ولا يُجفل منها، بل يحبها حب عاشق  
ويقدسها تقديس مؤمن..

ومفهوم الحرية عنده فى منتهى اليسر، وأيضاً فى منتهى  
الشمول. فالحرية، هى حرية الحق...  
الحق فوق جميع القيود..

وما دام الناس هم الذين يكتشفون الحق، فيجب أن يكونوا  
أحراراً فى ممارسة كشفه..

وما دام لا يوجد إنسان واحد يملك الحق وحده، أو يعرفه أحد؛  
فلكل فرد إذن الحق فى أن يسلك طريقه إلى معرفة الحق..

أى إن الناس أحرار فى أن يعلنوا آراءهم، ويحدثوا بما فى  
أنفسهم فإن يك صواباً ربح المجموع هذا الصواب، وإن يك خطأ  
تبيّن صاحب الخطأ خطأه..

ولكن من حق «عمر» علينا أن نقول: إن هذا الحق الذى يحترم اختلاف وجهات النظر فيه هو الحق الذى لم يأت فيه من الله ولا من رسوله بيان واضح وفصل..

وما أكثر نماذج الحق الذى ترك الله للناس أمر كشفها، وما أكثر الحقائق التى تتطلب آراء الناس لتظهر وتبين!!

وعند «عمر» أن إبداء الرأى من حق كل فرد، ذكر وأنثى، كبير وصغير، وليس من حق الصفة. أى صفة...

ذلك لأنه ينظر حوله، فيرى امبراطوريات تتهدم، وعروشاً تنهار، وشعوباً ذليلة، تصحو وتتحرر..

ثم ينظر.. بيد من يتم هذا العمل الجليل؟

إنه يتم بأيدي الرجال العاديين.. الأميين والفقراء والبسطاء الذين آمنوا «بمحمد» واتبعوا النور الذى أنزل معه.. هؤلاء إذن، هم قوام الحياة الجديدة!!

فإذا كنا نحترم سواعدهم التى تضرب وتبنى؛ فلا بد أن نحترم كلمتهم التى تُقال.. وإذا كنا نتطلب تأييدهم وتعزيدهم، فلا بد أن نتقبل مشورتهم ونقدتهم!!

وما داموا هم الذين يحملون العبء أولاً وآخراً، فليس من حق حاكمهم أن ينفرد دونهم باتخاذ قراراته ورسم خطته، وبالتالي ليس من حقه أن يتجاهل حقهم فى أن يقولوا: لا.. ما دام يحتاج إليهم فى يوم يقولون فيه: لبيك!!!

يدور ذات يوم حوار بينه وبين واحد من الناس.  
ويتمسك الآخر برأيه، ويقول لأمير المؤمنين: اتق الله يا عمر!  
ويكررها مرات كثيرة..  
ويزجره أحد الأصحاب الجالسين قائلاً: صه، فقد أكثرت على  
أمير المؤمنين.

ولكن أمير المؤمنين يقول له: «دَعْهُ؛ فلا خير فيكم إذا لم  
تقولوها.. ولا خير فينا إذا لم نسمعها!..»  
أجل، لا خير في الناس إذا لم يقولوا ما يرونه حقًا، ولا خير  
في الحاكم إذا لم يسمع منهم ويضع إليهم..

\*\*\*

ولكن ليست المشكلة مشكلة قول وسمع..  
إنما هي أولا مشكلة الثقة والطمأنينة اللتين ترفعان من مستوى  
الشجاعة في إبداء الرأي.. ومستوى العدالة في تقبله...  
وهذه عظمة «عمر» في هذا المقام، وهي كعظمته في كل مقام...  
عظمته في إدراكه أن الشجاعة هي سر الحرية وجوهرها.. وأن  
الناس إذا فقدوا شجاعتهم، فقدوا بالتالي كل ما يؤهلهم للاستقامة  
والتقدم والتطور الصاعد السديد..  
وعندئذ فالويل لهم، والويل للحاكم معهم..

إن الاثنين معاً. الحاكم والشعب، بتخليهما عن الشجاعة في إبداء الرأي وتقبُّله. قد أزمعا الانسحاب من الحياة! !.

\*\*\*

ألا هنيئاً لأمة يقودها هذا القوى الأمين «عمر»...  
هذا الرجل الذي برئ من آفة الحكم وآفة الحكام في كل زمان - ألا وهي الحرص على أن تكون كلمتهم العليا..  
برئ «عمر» من هذا، وتفوق عليه..  
وكانت الكلمة العليا عنده للحق أنى يكون.  
ولقد يقضى قضاء، ويبرم أمراً، فيعارضه صاحبه، ويقول للإمام العادل، والخليفة الأمين: ليحكم بيني وبينك آخرون..  
فلا وربك لا يألم «عمر» ولا يتأبى، بل يرحب في غبطة، لأنه سيجد عوناً على الحق إن كان مُحققاً، وهُدًى إلى الصواب إن كان مخطئاً!

لقى العباس يوماً وقال له:

- لقد سمعت رسول الله قبل موته يريد أن يزيد في المسجد، وإن دارك قريبة من المسجد فأعطنا إياها نزدها فيه. وأقطع لك أوسع منها..

قال العباس: لا أفعل..

قال عمر: إذن أغلبك عليها..  
فأجابه العباس: ليس ذلك لك، فاجعل بيني وبينك من يقضى  
بالحق.

قال أمير المؤمنين: من تختار؟؟  
قال العباس: حذيفة بن اليمان..  
وبدلاً من أن يستدعى أمير المؤمنين إلى مجلسه «حذيفة» انتقل  
هو والعباس إليه.

أجل، فحذيفة الآن يمثل سلطة الخليفة نفسه. إنه سيقضى  
ويفصل بين الخليفة، وواحد من المسلمين.. بين الدولة، وفرد من  
المواطنين.. شىء تشبهه - لو استقامت على الطريقة - مجالس  
الدولة في عصرنا هذا...  
وأمام حذيفة بن اليمان جلس «عمر»، والعباس. وقصاً عليه  
الخلاف الذى بينهما.

فقال حذيفة: سمعت أن نبي الله «داود» عليه السلام أراد أن يزيد  
في بيت المقدس فوجد بيتاً قريباً من المسجد، وكان هذا البيت  
ليتيم، فطلبه منه فأبى. فأراد «داود» أن يأخذه قهراً، فأوحى الله  
إليه: «إن أنزه البيوت عن الظلم لهُو بيتي»، فعدل «داود» وتركه  
لصاحبه..

فنظر العباس إلى «عمر» وقال: ألا تزال تريد أن تغلبنى على  
دارى؟.

قال عمر: لا..

قال العباس: ومع هذا، فقد أعطيتك الدار تزيدها في مسجد

رسول الله..!!

\*\*\*

أغلب الظن، أن «عمر» لو رأى انبهارنا اليوم بديمقراطيته  
وإنسانيته وعظمته. لرمقنا بنظرة ملؤها الدهش والعجب..

فهو لم يكن في كل روائعه هذه، يحسب أنه يأتي أموراً غير  
عادية، وهذا هو «جوهراً» العظمة..

عظمة رجل يدعو بالرحمة لمن يُهدى إليه أخطاءه..

لمن يقول له: لا... يا عمر..!!

ألا حياً الله أمير المؤمنين.

وتحية طيبة للبشرية التي أنجبتته، ولدين الذي رباه..!!!

□□□